الوركاء

مدينة حرف الكتابة الأول وانطلاق أوّل سائحٍ في التاريخ

> تحقيق: وليد عبد الأمير علوان
تصوير: وسيم عبد الرزاق عباس

لم نكن نتوقع أن نقوم بزيارة مدينة الوركاء، بالرغم من أننا كنا في مهمة عمل في مدينة السماوة. إلا أن مضيفنا اقترح علينا زيارة هذه المدينة التاريخية، فوافقنا على هذا المقترح، دون تردد، حيث أن زيارة آثار المدينة، التي انطلقت منها أولى الحضارات، وسلوك الطريق الذي سلكه أول سائح في التاريخ، هي فرصة لا تعوض. لذلك توجهنا صباح اليوم التالي إلى مفتشية آثار المثنى لترتيب إجراءات الرحلة. ومن هناك انطلقنا في سفرتنا، نحو مدينة البطل الأسطوري كلكامش، والتي رافقنا فيها الدليل الآثاري المخضرم (سيد يعقوب)، الذي ورث هذه المهنة عن أبيه. ويخيل لمن يشاهده أنه من أحفاد البطل كلكامش، حيث أنه ولد في نفس مدينة الوركاء.

معبد مجاور لمعبد (آي _ ننا)
A temple adjacent to AyNana temple

الموقع والتسمية

تقع مدينة الوركاء أو (أوروك)، على مسافة 56كم عن مركز محافظة المثنى (السماوة)، التي تبعد عن العاصمة بغداد مسافة 281كم جنوبا. و يتم الوصول إليها، عبر التوجه شمال مدينة السماوة مسافة 10كم، ثم الانعطاف يمينا تجاه مركز ناحية الوركاء، عبر طريق فرعي، لا يزيد طوله عن 6كم، ثم سلوك الطريق المتجه نحو الجنوب مسافة 40كم، للوصول إلى آثار المدينة.

قبل الوصول إلى المدينة الأثرية، والتي تبلغ مساحتها 9 كيلومترات مربعة، تشاهد من بعيد مجموعة من التلال والأراضي المرتفعة، وهي بقايا المدينة القديمة. وقد تم إحاطة هذه المنطقة بسياج من الأسلاك، للحفاظ عليها، ويتوسط هذا السياج، من الجهة المقابلة للشارع الموصل إليها، باب حديدي واسع لدخول السيارات والزوار.

لقد جاء في أصل تسمية المدينة، أن

الكاتب يلقي نظرة فاحصة على القصر ويظهر خلفه ما يشير إلى لوح للكتابة

The writer having a close look at Gilgamesh Palace and behind him some indications of a writing board

المنطقة المحيطة بالبيت

The area around Gilgamesh's Palace

المنطقة المحيطة بالبيت

The area around Gilgamesh's Palace

إسمها مشتق من الكلمة السومرية (أورو) ومعناها (مدينة)، و(كو) ومعناها (مقدس)، وبذلك فإن إسمها يعني (المدينة المقدسة).

تاريخ المدينة وأهميتها

الوركاء أو (أوروك)، من المدن العراقية القديمة، حيث يرجع تأسيسها إلى فجر عهد الاستيطان في جنوب العراق، أي الألف الخامس قبل الميلاد، واستمر السكن فيها حتى صدر الإسلام، ثم بعد ذلك بدأ نجمها بالأفول، بعد أن انحسر عنها نهر الفرات الذي كانت تقع عليه، حيث هجرها أهلها، وهو اليوم يبعد عنها حوالي 12 كم.

كانت هذه المدينة من أجمل المدن السومرية وأعظمها. وكانت في بداياتها عبارة عن مدينة صغيرة تقع على الأهوار، لذلك كانت مساكنها مشيدة بالطين والقصب. ثم أخذت الحياة تتطور فيها، وتعاقبت عليها حضارات متعددة، فقد سكنها السومريون، والأكديون، والبابليون، والكيشيون، الذين بنوا فيها المعابد والقصور، ثم حكمها الآشوريون، والكلدانيون، فالفرس الأخمينيون، ثم أنشأ فيها الإغريق، والسلوقيون، بنايات ضخمة، ما زالت آثارها باقية.

لقد حكم هذه المدينة اثنا عشر ملكا من السلالة الأولى التي حكمت أوروك، وأكثرهم كان من صنف الآلهة، أو من أشباه الآلهة، حيث أشارت بذلك الأساطير السومرية. إلا أن أشهر ملوكها هو كلكامش الذي بنى أسوار المدينة، والذي اشترك في بناء معبد (أي _ أنا). ثم حكمت المدينة سلالة كيش، ثم لكش، ولما وحد سرجون الأكدي بلاد الرافدين عام 2350 ق.م، أصبحت الوركاء من ضمن مناطق حكمه، في زمن سلالة أور الثالثة، والعهد البابلي القديم، ولكنها كانت دائما في طليعة المدن الكبرى، عمرانا وثقافة، بالإضافة إلى كونها مركزا دينيا هاما لعبادة الآلهة عشتار، وقد شيد فيها الملك الكيشي كريندش معبدا فاخرا، زين واجهته بجدار من الآجر المزين بنقوش بارزة، والتي تمثل بعض الآلهة، كذلك كان للآشوريين، دور في تشييد أبنية المدينة ومعابدها، ولاسيما الملك سرجون الثاني، ثم الكلدانيون الذين جدد ملكهم بنونيد زقورة المدينة، ومعبدها الكبير.

أما في العهد السلوقي، فقد كانت الوركاء من أمهات المدن في جنوب العراق. ولازالت أطلال بنايات هذا العهد، تسترعي انتباه الزائر، وتذكره بمجدها وعظمتها. لقد تم العثور في هذه المدينة على الكثير من المقتنيات الأثرية، وأشهرها (مسلة صيد الأسود)، و(الإناء النذري)، و(وجه الفتاة)

المنحوت من الرخام، والذي يسمى بـ(مونااليزا الوركاء)، تشبيها بلوحة الموناليزا لدافنشي، بالإضافة إلى أباريق منقوشة نقشا بارزا، وأخرى مطعمة بالصدف، ونفائس أخرى كثيرة.

ماذا بقي من المدينة؟

تتكون أطلال مدينة الوركاء، من عدة تلول ومرتفعات، هي بقايا المعابد والأبنية التي تهدمت بفعل عوامل الزمن، وتكدست أنقاضها، أكواما مرتفعة عن سطح الأرض. إلا أن ما يميزها هو أن بعض آثارها لا زالت محافظة على بعض ملامحها، رغم طول الفترة الزمنية، التي مرت عليها، فالبئر الذي كان يشرب منه أهل المدينة، لا زال كما هو، لولا تكدس الأتربة داخله، والتي طمرت معظمه. إن الزائر لها يشعر، كأن المدينة لازالت تنبض فيها الحياة، حيث لا زالت جدران بعض أبنيتها، محافظة حتى على لون طابوقها، كما إن الأقواس، التي تتوزع في معابد المدينة، لا زال بعضها محتفظا بجماليته. ولعل أشهر ما تقع عليه عينا الزائر لهذه المدينة الموغلة بالقدم، هي الزقورة.

الزقورة

إن أصل فكرة الزقورة، هو أنها حلقة الوصل بين السماء والأرض. وأول نموذج لها، والذي صار سمة ملازمة لمعظم الحضارات، التي قامت بعد ذلك في بلاد الرافدين، قد عثر عليه في مدينة الوركاء، ويرجع إلى العصر الحجري. وقد كانت الزقورة في فجر السلالات هي المكان الذي تقام في قمتها الشعائر الدينية. زقورة الوركاء على شكل برج مدرج عالي، مبني باللبن، الذي تتخلله طبقات من الحصير، لتقوية البناء، لذلك يسمي أهالي المنطقة هذه بـ(الابويرية)، تصغير لكلمة بارية، بمعنى الحصير. يقال إنها كانت تتكون من 12 مصطبة، بعدد الملوك الذين حكموا أوروك، حيث كان كل ملك يضيف مصطبة واحدة. إلا أنه لم يبق من الزقورة التي قام بتشييدها (أورنمو)، سوى مصطبة واحدة، وذلك بفعل عوامل الزمن.

يبلغ ارتفاع هذه الزقورة، 16 مترا عن الأرض المحيطة بها، ويزيد طول ضلعها على 60 مترا، وتحتوي على درج وسطي، باق إلى ارتفاع قليل. أما الدرجان الجانبيان فلم يصبهما الضرر بصورة كبيرة. الأول يقع في الركن الشمالي منها، في حين أن الثاني يقع في الركن الشرقي، وهما مبنيان بالطابوق وبحجمين، أحدهما صغير والآخر كبير.

لعل أعجب ما في هذه الزقورة، هو نظام تصريف مياه الأمطار، حيث يوجد فيها جدار عال، يتصل بسافية، تمتد إلى أسفل الزقورة، وتنتهي في بئر تحت الأرض. يبلغ قطر البئر حوالي 1,80 م ويمتد عمقه حتى مسافة بعيدة. وقد ذكر لنا حارس هذه المنطقة أن عمقه خلال السبعينات كان يصل إلى أكثر من 20 مترا، إلا أنه بسبب العواصف الرملية، والأتربة التي تكثر في هذه المنطقة، فإن معظمه قد طمر، ولا يزيد عمقه الآن عن 5 أمتار.

يبعد البئر عن الزقورة حوالي 35 مترا، وهو مشيد بالطابوق، الذي لا يزال بعض منه يستخدم في تغليف واجهات العمارات الحديثة والقصور الفخمة، ويسمى بـ(الفرشي) وهو على قياسين كبير وصغير.

معابد المدينة

لعلّ معابد المدينة، التي لا زالت محافظة على بعض ملامحها، هي من الآثار التي تجذب انتباه الزائر لهذه المدينة، حيث تظهر لك، وعن مسافات بعيدة. العديد منها موزع على أنحاء المدينة، ولم نتمكن من الوصول إليها جميعا، حيث اكتفينا بمشاهدة أطلالها الواضحة المعالم، ومن على مسافة كيلومترات قليلة، خشية أن يصيب الضجر المجموعة التي رافقتنا في زيارتنا. وقد صادف هذه الزيارة، هبوب رياح شديدة في هذه المنطقة الصحراوية.

إن أهم المعابد هو معبد آنو، الذي يخص إله السماء. ويقع هذا المعبد في الجزء الغربي من المدينة، ومعبد أي _ ننا الكبير، الذي أقيم لإله السماء ابنين في القسم الشرقي من الوركاء، في عصر ما قبل

مادة القصب والحصير المستخدمة في بناء سياج القصر الملكي لكلكامش
Reed and mats used in building the walls of Gilgamesh's Palace

المنطقة المحيطة بالبيت
The area around Gilgamesh's Palace

التاريخ، ويسمى أيضا بالمعبد الأبيض، ويعتقد أيضا أنه للآلهة عشتار، والتي بالغ أهالي وادي الرافدين في تقديسها، لأنه كان ينظر إليها، على أنها مصدر الحب والرحمة، والتي تولت نقل الحضارة من مدينة أريدو إلى مدينتها الوركاء.

يحتوي هذا المعبد على عدة قاعات تفصل بينها جدران مبنية بعناية فائقة. وقد تم تزيين واجهة الجدران الخارجية بفسيفساء مؤلفة من مسامير فخارية مصبوغة بألوان زاهية، يطغى عليها اللون الأزرق. أما المادة التي استخدمت في البناء فهي مادة الطابوق، وهو ذو حجم كبير، في حين استعملت في تثبيت الطابوق مادة تشبه مادة الجص يميل لونها إلى اللون الرمادي الفاتح. تتوزع في مداخل هذا المعبد، العديد من الأقواس الجميلة والتي بنيت بأبعاد متباينة، وربما كان الغرض من وراء ذلك هو لإضفاء الجمالية على هذا المكان، أو لضرورات قد اقتضتها عملية البناء. يتصل المعبد عبر باب واسع بمعبد آخر تم تشييده بنفس الطريقة، إلا أنه كان أصغر حجماً منه، ولم يكن على نفس الدرجة من الجمالية.

قصر كلكامش

لعلّ ما يثير الدهشة، لدى زيارة المدينة، هو بقايا القصر الذي عاش فيه البطل الأسطوري كلكامش وانطلق منه في رحلته الشهيرة بحثا عن شجرة الخلود.

يحتوي القصر، والذي لم يبق من معالمه سوى الأسس وبقايا الجدران، على غرفة واسعة مستطيلة الشكل محاطة بسورين، الأول صغير لا يتجاوز عرضه مترا واحدا، والآخر كبير عرضه ثلاثة أمتار، في حين يصل طولهما إلى حوالي 15م. ويحتوي هذا القصر أيضا على مجموعة من الملحقات، ويظهر أنها كانت خاصة بالخدمات. على الجانب الأيسر من باب الدخول، هناك جدارية كبيرة يظهر أنها ربما كانت تستخدم في تدوين بعض الكتابات. القصر تم بناؤه بعناية فائقة، وقد استخدم في بنائه مادة الحجر الصلد وليس الطابوق، كما هي العادة. والغريب أن هذه المنطقة لا يوجد فيها، سواء قديما أو حديثا، أي نوع من أنواع تلك الأحجار التي استخدمت في بنائه، وربما يكون قد تم جلبها بوسيلة ما من بادية السماوة البعيدة.

للقصر باب رئيسي، يوحي باستخدامه أيضا كمرصد للمراقبة، وذلك من خلال الفتحات القريبة منه. وهذا القصر لا يبعد عن المعبد الرئيسي سوى مسافة لا تزيد عن 100م. والمدينة، وجميع ما ضمت، كانت محاطة بسور عظيم، قيل إن كلكامش قد سخر المئات من أبناء المدينة في بنائه، من أجل حمايتها من الأخطار. إلا أنه لم يبق من هذا السور سوى بعض الأسس.

بيت كلكامش

Gilgamesh's Palace

بيت كلكامش

Gilgamesh's Palace

ملحمة كلكامش

يعتبر كلكامش من أشهر ملوك أوروك، وهو ملكها الخامس، وصاحب الملحمة المشهورة، التي لا تزال تستقطب اهتمام الباحثين والمؤرخين، الذين لا زالوا يجتهدون في تحليلها، وتحليل شخصية بطلها، هل هو حقيقي؟ أم أسطوري؟ إلا أن علماء الآثار والمؤرخين أجمعوا أخيراً على أنه شخصية حقيقية عاشت في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد.

تكمن الشهرة الحقيقية لملحمته، لكونها أطول وأجمل عمل أدبي صدر عن حضارة وادي الرافدين. كذلك فإن بعض ما ورد فيها يتفق

تماما مع أحداث تاريخية مهمة، مثل طوفان نوح (عليه السلام)، لذلك لا غرابة إن أطلق عليها (أوديسة العراق القديم). وخلاصة الملحمة، أن أهالي أوروك، ضاقوا ذرعا، من ظلم وتعسف كلكامش، فابتهلوا إلى الآلهة ليجدوا مخرجاً لهم من ظلمه. فاستجابت الآلهة لدعواتهم، وقامت إحدى الإلهات، واسمها ارورو، بخلق رجل وحشي يعيش مثل الحيوانات هو أنكيدو، ولأنه كان ينقذ الحيوانات من شباك الصيادين، مما ألحق بهم الضرر، لذلك قاموا برفع شكواهم، إلى الملك كلكامش، لينقذهم منه. ولم يلبث كلكامش أن ذهب بحثا عنه، حيث التقيا، ودارت بينهما معركة انتهت بانتصار كلكامش، إلا أنه صار صديقا حميما لأنكيدو. لأن كلكامش كان يسعى للقيام بأعمال عظيمة، ومنها القيام بقطع جميع أشجار غابة الأرز، حيث كانت تعيش الآلهة، فقد أدى ذلك إلى حصول قتال عنيف، بين كلكامش وأنكيدو من جهة، وهومبابا حارس الغابة، من جهة أخرى، انتهت بمصرع الأخير. ولأنه كان يعتبر بطلا خرافيا، فقد ذاعت شهرة كلكامش، وحاولت الآلهة عشتار التقرب منه، والاقتران به، إلا أنه رفض ذلك وبشدة. ونتيجة للإهانة التي لحقت بها، طلبت من والدها انو، إله السماء، أن ينتقم لها. عندها قام انو، بإرسال ثور مقدس من السماء، إلا أنه لقي حتفه على يدي كلكامش وانكيدو، لذلك قررت الآلهة قتل انكيدو لأنه كان من البشر، فابتلي بمرض، ثم لم يلبث أن مات. أما كلكامش فلأنه كان نصف إله ونصف بشر، فلم يقدروا عليه.

لقد أصابت كلكامش حالة حزن شديدة إثر فقدانه صديقه الأثير، لدرجة أنه رفض أن يدفن جثته، وبقي لمدة أسبوع من غير دفن، حتى بدأت الديدان تخرج منها، مما اضطر كلكامش إلى القيام بدفنه بنفسه. وقد سببت هذه الوفاة صدمة كبيرة لكلكامش غيرت من مجرى حياته، حيث تخلى عن حياة الترف والبذخ التي كان يعيشها، والملابس الفاخرة التي كان يرتديها، فارتدى جلود الحيوانات، وقرر أن يبحث عن الخلود. ولأن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يحقق له ذلك، هو اوتو نابشتم، فقد قصده طلبا لذلك.

لما لاحظ الأخير إصرار كلكامش للحصول على الخلود، عرض عليه أن يبقى يقظا دون نوم لمدة ستة أيام وسبع ليالي، عندها فقط سوف يصبح خالدا مثله. إلا أنه فشل في ذلك. وأمام إصراره، طلبت زوجة اوتو نابشتم، والتي تعاطفت مع حالة كلكامش، من زوجها مساعدته، حيث اقترحت عليه، البحث عن عشب سحري تحت البحر، بإمكانه إرجاع الشباب إليه. ولم يلبث كلكامش، وبعد مغامرات طويلة، من الحصول على هذا العشب ليأخذه معه إلى أوروك، ولكن في أثناء عودته، وعندما كان يغتسل في النهر، قامت إحدى الأفاعي بسرقة العشب وتناوله. ثم لم تلبث أن نزعت عنها غلاف جلدها، ويعني هذا تجديد شبابها بفعل هذا العشب. وقد عاد كلكامش إلى أوروك، وهو خالي الوفاض. وعندما اقترب من أوروك، وشاهد السور العظيم الذي بناه حولها، أدرك أن ضخامة هذا السور هي الضمانة الوحيدة التي بواسطتها يخلد إسمه. ثم لم يلبث أن فارق الحياة بعد أن أحسن إلى سكان مملكته. وتحدثت الملحمة بإسهاب عن مدى حزن أهالي أوروك عليه.

عندما قرر صندوق الآثار الدولي، اعتبار العراق بجميع مدنه موقعا أثريا، فإن هذا القرار لم يأت من فراغ، لأن بلدا مثل العراق يضم أكثر من 10 آلاف موقع آثاري مسجل، وأضعاف هذا العدد غير مسجلة، لحقبة زمنية تمتد لأكثر من 7 آلاف عام، هو السجل الناطق لحضارات، انطلقت منه وأغنت البشرية بنتاجاتها، ولم يبق منها سوى آثار وأطلال. ■

البئر الذي يقع أسفل الزقورة وتنتهي عنده قناة تصريف المياه

The well below the zagora

جانب من السور الذي يحيط ببيت كلكامش

The wall around Gilgamesh's Palace